سوق البنات!

(١)

كعادته اليومية استيقظ الأستاذ «مندور» من نومه عند الفجر، فرك عينيه براحتيه ثم تثاءب.. شد الغطاء على زوجته النائمة بجواره، والتي راحت تغط في نوم عميق.

نهض ليتوضأ ويصلي..

عدّ قهوته بنفسه على موقد (السبرتو)، وصبَّها في فنجانه الأثري، الذي كان قد ابتاعه من خان الخليلي منذ أيام الشباب..

جلس جلسته المفضَّلة على أريكة بلدي تتوسط الصالة، وراح يرتشف القهوة من فنجانه، ويتفكَّر في الكون جليًا وهو يداعب حبات مسبحته الكهرمانية الصفراء (رُزق من البنات خمسًا، ولم ينجب ولدًا واحدًا يحمل اسمه، ويحمله عند اللزوم!) .. أمر الله، وله في ذلك حِكم.. لا أحد يعرف أين الصالح.

ربما رُزق بولد فاشل أو معاق يكرهه في عيشته.. ولكن الله

قدّر ولطف.

الصبيان في هذا الزمن مشكلاتهم كثيرة، وربما أكثر من مشكلات البنات.

خمس بنات كبراهن في الدبلوم الفني، وبين الواحدة والأخرى سنة أو اثنتان على الأكثر.

الصحة كانت مساعدة، والأمل في وجه الله كان كبيرًا، ولكن الأمر لله من قبل ومن بعد.

احتياجات البنات كثيرة والمعاش ضئيل، أربعون سنة خدمة في الحكومة والمعاش لا يتجاوز ثلاثمائة جنيه شهريًا.

تزوج في سن متأخرة، وكانت النتيجة أنه شاخ قبل أن يستّر بناته.

ربنا يتولاهن ويتولانا برحمته الواسعة.

أوشكت الإجازة الصيفية على الانتهاء، واقترب موعد دخول المدارس و(وجع الدماغ).

كل بنت تلزمها ملابس ومصروفات، ولوازم مدرسية، ودروس خصوصية ومواصلات، (والله لولا ستر ربنا وحكمة الولية لكنا رُحنا بلاش!).

وهو لم يعمل حسابًا لهذا اليوم أو لغيره، وأي حساب؟!.. «القرشين معدودين»، وعلى رأي المثل (عد غنمك يا جحا).

نظر في ساعة الحائط المعلقة أمامه، فوجد الساعة تشير إلى السابعة، فارتدى «روبه» اليتيم الذي أكل عليه الدهر وشرب، ولم ينس أن يأخذ مفتاح الشقة في جيبه وحافظة نقوده، وانصرف لإحضار فول الإفطار وجريدة الأهرام التي أدمن مطالعتها.

(٢)

وجد الشارع يعج بالمارة والباعة والموظفين ووسائل المواصلات المختلفة، فتذكَّر «أيام زمان»، توقَّف أولًا أمام عم محروس بائع الجرائد والتقط جريدته بنهم، وأخذ يقرأ العناوين الرئيسية، طواها تحت إبطه، وواصل المسير..

وما هي إلا دقائق ووجد نفسه أمام محل فول وفلافل عم جمعة، وكان يعمل به شاب جامعي وسيم، كثيرًا ما كان يتودد إلى الأستاذ «مندور»، ويحاول أن يتقرَّب منه (خريج جامعة ويعمل في محل فول وطعمية؟!).

وفي طريق العودة ألقى تحية الصباح على البقَّال والعجلاتي والفطاطري وغيرهم.

والحق أن الجميع كانوا يحترمونه ويبتسمون في وجهه..

وما إن صعد السلم ودخل الشقة حتى رشق نظارته الطبية في أذنيه، وأدار مفتاح التليفزيون، وشرع في مشاهدة برنامج (صباح الخير يا مصر) حتي تستيقظ حرمه المصون من نومها العميق.

وقبل أن يعتدل في جلسته المفضَّلة، رن جرس الباب وكانت الحاجة «أم حسين» جارتهم بالعمارة المقابلة وصاحبتها.

تمتم في نفسه قائلًا: (خير إن شاء الله.. اللهم اجعله خير يا رب.. ده إحنا لسة بنقول يا فتَّاح يا عليم).

ولكن ابتسامة الحاجة أم حسين صرفت عنه الخوف، وأدخلت السرور إلى قلبه، وفي الحال نهضت زوجته وراحت تسوي ما بعثرته البنات بالصالة قائلة بفرح عظيم (اتفضلي يا أختي)، واستقبلتها أحسن استقبال.

وبعد دقائق استطردت قائلة:

- يا ألف مرحب يا أختي شقة غريبة.
- ما غريب إلا الشيطان يا ست حسنية.. ده إحنا إخوات ربنا يديم المعروف يا أختي.

وأعدّ لها الأستاذ مندور القهوة بنفسه، وأثناء الحديث مالت عليها الحاجة أم حسين وهمست:

- خير يا أختي طبعًا.. عريس.

وضحكت بفرحة غامرة، ولكن الست حسنية ذُهلت، وتسمّر الرجل في مكانه.

- عريس؟!

- طبعًا يا أختي عريس.. لاسم الله عليها (سُمية).. بسم الله ما شاء الله عليها.. هي صغيرة ولا صغيرة؟!

ولكن أم سُمية راحت تدعك كفيها حتى جرى الدم منهما، ولم تستطع الرد عليها، كما أن الرجل لم ينطق ببنت شفة.

- قلتي إيه يا أختي؟

- قُلت عريس زي الفل وشاطر، وصغير صلاة النبي أحسن، ومعاه شهادته وعنده ورشته.. سمكري سيارات أد الدنيا.. «حمادة» ابني وجاهز من مجاميعه.. أصله يا ضنايا يا ابني شاف اسم الله عليها إمبارح وهي داخلة البيت.. وهو طبعًا عينه منها من الأول، قال يا أمي يا أبويا ما تفوتني البنت دي أبدًا.. وسألني عنها، وطبعًا قولتله يا زين ما هتاخد.. ودي الحقيقة يا أختي (أصل وجمال وأدب وحسب ونسب)، والنبي ما تعرفي معزتكم عندنا أد إيه.

وبعد فترة من الصمت.. استطردت متسائلة بإلحاح:

- قولتوا إيه يا أختي عشان ألحق أبشَّر الواد قبل ما ينزل؟؟

فأجاب الرجل متأففًا، وعلامات الضيق واضحة عليه:

- حاضر يا حاجة، بس إدينا فرصة لما نتشاور، وحتى نشوف رأي البنت إيه.

وكان الرجل على وشك النطق بالرفض، لولا أن الزوجة لكزته بكوعها طالبةً منه الانتظار وعدم التسُّرع في الرد، أما عن الحاجة أم حسين.. ففزَّت واقفةً كمن لدغها عقرب قائلة:

- أوي أوي يا أخويا.. معاك بدل اليوم تلاتة واتشاوروا براحتكم.. وكل طلباتكم مجابة.. ماتحملوش هم أي حاجة خالص.. الولد حالته ميسورة والحمد لله.. والبنت تستاهل الدنيا بحالها.. والشاري مايبيعش يا ست أم سُمية.. فُتكم بعافية..

وانصرفت..

(٣)

بعد انصراف الحاجة أم حسين مباشرةً، حدثت مشادة كلامية بين الرجل وزوجته، فهو يعارض بشدة فكرة الزواج حاليًا لأي بنت من البنات، وذلك لسوء الحالة المالية، ولا داعي للاستعجال والدخول في مثل هذه المتاهات من الآن، خاصةً وأن كرامته لا تسمح بعدم القيام بالواجب لبناته وتجهيزهن (دول بنات الأستاذ مندور).

وإلى متى الانتظار يا أستاذ مندور، هل هناك كنز أو ورث يستدعي الانتظار.. الست قالت الولد مستعد وجاهز، وخير البر عاجله.

وعلى أثر الضجيج كانت البنت قد استيقظت من نومها، وراحت تتنصت عليهما حتى وقفت على موضوع الحديث، وعرفت من هو العريس المرتقب، وهي تعرف حمادة جيدًا، وكثيرًا ما كان يغازلها في «الرايحة والجاية».

فورشته على ناصية الشارع بجوار مقهى الحرية، والحق أن

البنت فرحت جدًا بهذا الخبر، فالولد مؤدب ومتعلم وذوق، بالإضافة إلى أنه (كَسِّيب)، والسيارات «مترصصة قدام» ورشته، وغيره من الشباب أقرانه وزملائه مازالوا يتسكعون في الشوارع بحثًا عن عمل.

وطلبت البنت من الله أن يكون هذا العريس من نصيبها..

وأخيرًا وبعد اقتناع وافق الأستاذ مندور وطلب من زوجته أن تأخذ رأي البنت، خاصةً بعد أن وعدته الزوجة بأنها سوف تطلب (قرشين سلف) من إخواتها لتجهيز البنت، وهم جميعًا- بسم الله ما شاء الله- في حالة ميسورة و(ما يصدقوا أطلب منهم أي حاجة، وخاصةً في ظروف زي دي، بس إنت اتنازل شوية عن كرامتك اللي هتوقَّف حال البنات.. دي البنات يا أخويا ليها سوق!).

وفي التو توجَّهت إلى غرفة نوم البنات ووقع بصرها على «سُمية» التي تظاهرت بالنوم بعد أن عرفت كل شيء، لكنها كانت مفتوحة العينين وتنظر إلى سقف الحجرة، فبادرتها الأم بقولها:

- تعالي يا سُمية كلمي أبوكي.

- خير يا أمي؟؟ اللهم أجعله خير.

وبسرعة البرق كانت جالسة بجوار والدها على الأريكة، متجاهلة كل شيء.

فقال الأب:

- صباح الخير يا سُمية.. ندخل في الموضوع على طول من غير لف ولا دوران.

- أي موضوع يا بابا خير؟!

- يا بنتي بقى على بابا الكلام ده؟!.. يعني أنت مش عارفة؟

فابتسمت بينما كانت الأم واقفة على نار لتسمع رأيها في الولد.

واستطرد الأب قائلاً:

- قُصر الكلام.. موافقة ولا لأ؟

فابتسمت البنت للمرة الثانية قائلة:

- على إيه يا بابا؟

فكرر ما قاله سابقًا، فأجابت:

- مش حضرتك وماما موافقين؟

- من جهة الموافقة، إحنا يهمنا رأيك إنتي أولًا وأخيرًا.. إنتي

اللي هتعيشي معاه.. وعلى كل حال إحنا نشوف الولد ونسأل عليه ونختبره قبل ما نتفق على أي حاجة.

- خلاص يا بابا اللي تشوفه.

وفي المساء كان أهل العريس قد حضروا للاتفاق، وفي أرجاء الشقة كانت ترن زغاريد أم سُمية والحاجة أم حسين.

وفي ركن أقصى رمق الأستاذ مندور سيدة بدينة تهمس في أذن الحاجة أم حسين، ولكنه لم يعلِّق، واعتبر نفسه لم ير شيئًا..

وبعد الاتفاق وقراءة الفاتحة، وقبل انتهاء الزيارة، بعد الأكل والشرب (والذي منه)، واستعداد الضيوف للانصراف، انتحت الحاجة أم حسين بأم سُمية جانبًا، وأعطتها الأخيرة أذنها قائلةً:

- خير يا أختي تحت أمرك؟.

فهمست لها أم حسين قائلةً:

- عايزين البنت التانية، عريس زي الفل، وأحسن من حمادة كمان.

وما كان من أم سُمية ودون أن تدري إلا أن أطلقت لحنجرتها العنان وفتحت في الزغاريد، وكان ذلك أبلغ من أي رد!..